# الدستور

## والنعرات المذهبية

لانيسي الفرسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

إنّ من يعرف الشرق العربي قبل الدستور يعرف ما بلغهُ من الاختلال الاجتماعي والاقتصادي . فسياسة الحكومة الخرقاء والدعايات الاجنبية المختلفة كانت من افعل الوسائل لتوسيع شقّة الخلاف بين ابناء البلاد حتى اصبحت البغضاء الطائفية مستحكمة الحلقات وكثيراً ما كان ذلك يفضي الى « حوادث » دامية وشرّ مستطير . ومهما نحاول تخفيف الامر فلا سبيل الى انكار ما كان في العهد الحميدي من حزّازات بين الاكثرية والاقلية ، بل بين الفروع التي تنتمي الى كلٍّ منها . وفي ذلك يقول سليمان البستاني وهو عثماني صميم ومن الذين خدموا الدولة نائباً ووزيراً «لم يكن من مصلحة ظلمة الاستبداد في الحكومة الغابرة ان يؤلّفوا بين القلوب اذ كانوا يعتقدون لجهلهم ان وفاق الامة يدك معاقل صولتهم »[1] والى هذه الحال يشير بطل الانقلاب نيازي بقوله من خطبة القاها في جمعية الاتحاد والترقي وذلك قبيل اعلان الدستور[2] « تعلمون ان سفالة الحكومة وجبنها وهوسها صيّرتا سخرية بين الناس والذي يجب ان نقوم به لقاء الحكومة ولقاء مؤامرة اوربا على تقسيمنا هو ان تثبت فعلاً في ثورتنا هذه اننا نحب المسجيين كاخواننا ونساوي بينهم وبيننا . فليست ثورتنا ضد الاشخاص والعناصر بل هي نهضة ضد اصول الادارة التي اوقعت العداوة بيننا وبين اخواننا في الوطن». فنيازي هنا يصرّح بهذه الحقيقة المؤلمة ويعزو اللوم في ذلك الى سوء الادارة من جهة والى سياسة المستعمرين من جهة اخرى . ولقد يصحّ ان نستثني مصر لما كانت تتمتع به من حرية اجتماعية بعد الاحتلال على ان سائر البلدان العربية ولاسيما سوريا كانت — كما هو معروف — تتخبّط في دياجير التعصّب

(١) كتابه عبرة وذكرى (١٩٠٨) ص ١٠١ (٢) من تأملات نيازي راجع الورد الصافي ١ — ٦٤

وتقاسي منهُ الاهوال . فلا عجب اذا رأينا السوريين واللبنانيين يهاجرون الى وادي النيل او يضربون في آفاق الارض سعياً وراء الرزق والحرية . وقد اصاب حافظ ابرهيم اذ قال في وصف هؤلاء المهاجرين [1] —

لم يحمهم عَلَمٌ فيها ولا عددٌ ... سرى مضاء تحامى وِرْدَهُ الذُّيَّابُ
لهم بكلّ خضمٍّ مسرب نهج ... وفي ذرى كل طودٍ مسلك عجبُ
ما عابهم انهم في الارض قد نُثروا ... فالشهب منثورةٌ مذكانت الشهبُ

ولا ينكر ان كثيرين من العقلاء كانوا يرغبون في الحسنى . وفي القضاء على هذا الاختلال الاجتماعي المؤذي ، لكن السياسة على ما يظهر لم تمكّنهم من ذلك

فلما أعلن الدستور ونودي في الناس بالحرية والمساواة والاخاء زال الضغط فجأةً عن الصدور حتى رأينا من غريب المشاهد ما كان له اثر عميق في ادب ذلك العهد . زعماء الطوائف يتعانقون في الساحات العمومية ويتعاهدون على المودّة الاخوية . قال الدكتور هرد بلس من خطبة له القاها في الجمعية البترانية الوطنية باميركا (في ١٨ دسمبر ١٩٠٨ ) ذاكراً تلك الحال في بيروت — [2] « فأطلقت حينئذٍ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يبالكون ضبط نفوسهم عن اظهار بهجتهم — والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحكمة صاروا الآن اصدقاء اعزّاء في الحفلات والمجتمعات وصار رؤساء الدين من المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتعانقون . قطعت الاغصان من الاشجار وأتي بالبسط من المنازل وأكتظت الشوارع بالناس فكانوا يضيفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زماناً طويلاً . وكانت امارات المودّة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم »

ولنترك لاديب بيروتي معروف وصف مشهد من هذه المشاهد وهو اخرج ما حدث في اهم الحواضر العربية قال — [3] « من أبهج ما رأيت من هذا الوفاق ان نفراً من شبان حيّ السراي (حي اسلامي ) ركبوا العربات فسارت الى محلة الجمّيزة ( حي مسيحي ) فجدّدوا عهود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد ان ابلاها الجهل ورجال السوء . هناك تآخى الفريقان وتحابّ القبيلان وعلموا ان الثمانين جسم واحد تديره روح واحدة »

ويزكي هذه الشهادة ما ذكرتهُ مجلة الهلال عن بيروت اذ قالت [4] — « اظهر اهل بيروت بعد اعلان الدستور ما ادهش العثمانيين من الاتحاد والحرية الشخصية وصحة المدإ . فقد كان أهلها اول من تصافح فيهم الشيخ والشيس . واظهروا في اثناء انتخاب النواب لمجلس الامة

(١) من قصيدته الشهيرة ( لمصر ام لربوع الشام تنتسب ) (٢) راجعها في المقتطف ٣٤ — ٣٥٠
(٣) مصطفى الغلاييني في لسان الحال ٦ آب ١٩٠٨ (٤) الهلال مج ١٦ — ٩٩٦

استقلالاً في الفكر واتحاداً في الكلمة. ولما وثب بقية حزب التقهقر بجمعية الاتحاد والترقي بالاستانة كانوا في مقدمة الناقمين على الواثبين. وقاموا يؤيدون الدستور بخطابهم ورسائلهم. وعزوا على بعض الجواسيس يسعون في التفريق بينهم فتبصروا عليهم . وجددوا الوفاق بين طوائفهم . وقالوا اذا تباغضت الطوائف في كل المملكة فنحن متفقون في نعمة الدستور الى آخر نسمة من الحياة »

والشعراء في هذا الوفاق وفي الحض على نبذ التعصب القديم قصائد كثيرة نجتزىء منها ببعض مقطعات على سبيل التمثيل . فمن ذلك هذه الابيات [1]

قد صرتم امةً في الارض واحدةً ... من آل عثمان لا عُرباً ولا عجما
فلا تفرّقكم اجيالكم فرقاً ... ولا تفتّتكمُ اديانكم قِسَما
كم قيدوكم بها اسرى وكم سفكوا ... دماءكم او احلوا فيكم النقما
واليوم جرّد سيف الحق صاحبه ... وهاجم الظلمَ حتى فرّ منهزما
تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا ... من بعدما افترقا ضدين واختصما
تآخيا في حمى الدستور واتّحدا ... ورفرفت راية التوحيد فوقهما

وهذه النغمة تسمعها في بيروت كما تسمعها في دمشق وبغداد وسواها . فمن دمشق مثلاً قول أحد أدبائها [2] من قصيدة : —

أيها الشرقيُّ قد بلّغتَ ما ... كنت ترجوه فهل تمّ خلل
فانبذ البغضاء والحقد ودع ... كلَّ ما فيه فسادٌ وزغل
كلُّ من في الشرق اخوانٌ فلا ... فرق بين الخلق من كلّ النحل

ومن العراق قول شاعره [3] —

أكرم بمصرٍ حيانا بالمساواة ... وخصنا بالتهاني والمسرات
عصرٌ به قد تآخينا فليس ترى ... بعد الاخاء طريقاً للعداوات

والذي يظهر من مراجعة النقات الدستورية ان هذا الشعور الأليم بمساوي التعصب الديني كان أبرز في الشعر السوري اللبناني منهُ في سائر الاقطار العربية . ولعلَّ من أسباب ذلك أن مسألة « الاكثرية والاقلية » لم تبلغ في مكان ما بلغتهُ في الاقطار السوريّة . فمصر كما ذكرنا كانت تحت نفوذ الاحتلال ، والعراق قطر اسلامي لا قوّة للاقلية فيه وبالتالي لا تنافس طائفي موجب للبغضاء . وان كان شيء من ذلك في ذلك الحين بين المسلمين أنفسهم من سنّة

(١) من قصيدة لتقولا رزق الله الهلال ١٧ — ١٧٢ (٢) هو شاكر يافث: شيخو ٢ — ١٦٥
(٣) من قصيدة: راجع شيخو ٢ — ١٦٤ ( ولم نجدها في ديوان الشاعر )

وشيعة . ولم يظهر في الشعر العراقي من اشارة الى احتكاك المسلمين بالمسيحيين الا في عهد الانتداب ، كما نرى في قصيدة وجّهها الرصافي الى المسيحيين ومطلعها (١) —

أما آن ان تُنسى من اللوم أضغان  تبينى على أنّ المساواة بيان
علامَ التعادي لاختلاف ديانةٍ  وإن التعادي في الديانة عدوان
إذا جمعتنا وحدةٌ وطنيّةٌ  فماذا علينا أن تُعدّد أديان

وهي طويلة وتشفّ عن خوف العراقيين من السياسة العاملة على هدم الكيان القومي بالتفريق بين طوائفه . وسنرجع الى ذلك بعد .

أما سوريا وبنوع خاص منطقتها الساحليّة التي تشرف عليها جبال لبنان فقد كان التناقض الطائفي فيها على أشدّه ، وكانت دائماً اكثر تعرّضاً للدعايات الاجنبية وأكثر اختلاطاً بالحضارة الغربيّة . فنشأ عن ذلك ضغائن ورواسب دموية كان لها أثر عميق في النفوس . فلا بدع أن نرى الشعر السوري واللبناني في ذلك العهد أشدّ تهجماً على التعصّب الديني وأكثر ترحيباً ورجاء بالعهد الجديد . وقد حملت الثورة الدستورية بعضهم على الخروج عن حادّة الاعتدال . فلم يقفوا عند حدّ التهليل بالاخاء والدعوة الى نبذ الاحقاد ، بل تجاوزوه الى درجة التطرف فصاروا يعزون الى الدين ورجاله كلّ أسباب التعصب والشقاق ، ويرجعون اليهم كلّ ما أصاب الشرق من البلايا الاجتماعية ، كقول احد شعراء المهجر (٢)

وإني ليوهيني تقسّم أمتي  بأديانها والشرّ بين المذاهب
متى ينتهي كهّانها وشيوخها  فنخلص من حيّاتهم والعقارب
شقينا لتمام وراحتهم فهم  يموتوننا كالميس تحو الحاطب
فما الدين إلا نسخة بعد نسخةٍ  يزخرفها للناس أهواء كاذب

وفي الشعر الدستوري كثير من مثل هذا التطرّف ( ومعظمهُ في الاوساط المسيحية ) . فلا تعجب اذا رأينا رجال الدين ينكرون ذلك ويقاومونهُ كما فعل الاب لويس شيخو في كلامه على الحرية الدستورية إذ قال (٣) . « وأسوأ من هؤلاء (أي المبالغين والمتهوّسين) اولئك الذين تسرّلوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم ذمار الدين وانتهكوا حماه وبحسبنا حتى نمثّل فنرى هذا ينسب الى الدين كلّ الشرور وأسباب التقهقر ، والدين كما لا يخفى بأمر بالاخاء والتحاب

(١) ديوانه ( ١٩٢٣ ) ١٥٠ (٢) ابو الفضل الوليد في « أغاريد وعواصف » ٤٠ (٣) آداب القرن التاسع عشر ٢ — ١٦٨

وغيره يدّعي أن الدين لا دخل لهُ في السمران وانهُ من المسائل العرضية (كقوله)

خلِّ قسِّي وشيخكم في جدالٍ وأحكمِ لي في المسائل الجوهرية

وإذا ذكر الذين حُكم عليهم بالظلم وقت الاستبداد تعجَّب أنهم لم يكرموا كآلهة مثل السيد المسيح

مات عيسى فألّهتهُ ألوف وألوف ماتوا وراحوا ضحيّه

« ويجعل آخر كلّ الاديان متساوية وكلها صحيحة » . . . الى ان يقول .. « فنشدكم الله ايها الشعراء صونوا تراثكم من كل امتهان ولا تبتذلوا موهبة جاد بها عليكم المنان »

***

ولا بدّ لنا من القول ان هذه الحرب التي اثارها الشعر الدستوري على التعصب الديني قد احدثت شيئاً من التقارب المنشود، لكنهُ لم يكن ثابت الاركان . فظلت الطائفية اساس الاجتماع والسياسة في البلدان العربية . وظلت مسألة الاكثرية والاقلية عقدة من العقد المستعصية ، حتى في مصر حيث كانت السلطة الاحتلالية تقوم بدور الحماية لحقوق الاقليات . ففي سنة ١٩١١ عقد الاقباط في اسيوط مؤتمراً خاصًّا للمطالبة بامور تتعلق بطائفتهم [1] وازاء ذلك عقد المسلمون مؤتمراً في عين شمس [2] ومن بواعث الرضى أن جوّ المؤتمرين كان مشبعاً بروح الوئام . الاّ ان المدقق في البواعث على انعقادهما لا يسعهُ الاّ ان يرى شبح الطائفية فيهما ماثلاً للعيان . وكذلك كان هذا الشبح في سائر الاقطار العربية

فالدستور أرهف الشعور الاخوي بين الطوائف حيناً ، وفتح للاحرار باب التهجم على التعصب ، حتى ظنّ كثيرون ان اسباب الجفاء الديني قد زالت من الشرق العربي ، وان ابناء الشرق ، على اختلاف نحلهم ، سيتعاونون في فتل المبانية الجديدة بعهد جديد تتقلّب فيه روح الوطنية الحرّة على انقاض الدينية المتأسنة . والحق يقال ان الشعر العربي لم يتقصّر في الدعوة لهذا العهد الجديد ، ولم يألُ جهداً في اثارة النفوس لتتخلص من قيود الاوهام ومما ورثتهُ من سخافات القرون المظلمة . لكن تلك الدعوات على ما كانت عليه من بطلان كانت أرسخ من ان تستأصلها ثورات الكلاميات فعادت الى الظهور ولا تزال الى الآن تعمل عملها في حياة الشرق الاجتماعية والسياسية . ونرى انهُ قد ظهر بعد هبّة الدستور هبّات اخرى هي ايضاً أرهفت الشعور الوطني واعدّته للتشريعين الى الاتحاد والوئام . على ان عوامل التفريق لا تزال تعمل في الشرق عملها الهدّام . ولا يزال الشرق رغم الجهود المبذولة بعيداً عن هدفه الوطني المنشود

(١) الهلال ١٩ — ٥٠٦ وكان كاتب هذه السطور ممن اتيح له حضور هذا المؤتمر
(٢) » ١٩ — ٥٠٧

﴿ بعد النشرة الدستورية ﴾ حاولنا فيما سبق ان نؤرخ العواطف العربية بوصفنا الاثر الذي أحدثهُ الدستور لاول وهلة في نفوس العثمانيين وسائر ابناء الشرق الاوسط . وقد رأينا كيف برز الشعر في مفتتح العهد الدستوري بحلل قشيبة من الحماسة شدَّاها الامل ولحنها الاستبشار . على انهُ لم يظلّ كذلك طويلاً . فلم تكد تمرّ سنة على اعلان الدستور حتى رأينا كثيراً من النغمات الشعرية مصطبغة بألوان قاتمة من الاشفاق والحذر . ولو تحرّينا الاسباب لوجدناها متباينة الاصول . فمنها نفسيٌّ ومنشأه ذلك التراخي الذي يتبع عادة شدّة الانفعال او الثوران العصبي . خذ الغضب مثلاً فهو يثير النفس ويسعرها موقتاً بشيء من القوة ، لكنهُ لا يلبث ان يزول ويعقبهُ « رد فعل » مقترن بالضعف والهبوط . ومثله الاغراق في الحبور او الحزن والامل وما الى ذلك من الظواهر النفسية . وذلك ما حدث في الهبة الدستورية . فقد كان الشعر على اثرها متوتّراً شديد الحماسة ثملاً يترنح بخمرة الانتشاط . تهزج ورقص صخب ما شاء . ثم عراه في بعض الاوساط هبوط تدريجيٌّ الق عليهِ سمة من التشاؤم

ومن اسباب هذا التشاؤم خيبة الامل في النظام الدستوري . كان الناس يرجون من الدستور المستحيل . يرجون منهُ ان يقلب الاحوال وينير الطباع وان يجيء لهم فجأة باسباب التقدم والسعادة . على ان النظام وحده غير كافٍ ، ولا بدَّ من اتحاد الزمن والعلم والاخلاق للوصول الى الغاية المنشودة . وكما ان الشجرة لا تنمو الاَّ اذا تهيأت لها اسباب النموّ ولا تثمر الاَّ متى حان الاوان ، كذلك كل دستور . وما على القائمين بهِ الاَّ تعهده بحنكة واخلاص ، وتدريب الناس تدريباً منظَّماً على السير بموجبه والعمل بمقتضياته . ولا شك في ان العثمانيين عموماً لم يكونوا على استعداد كافٍ للحياة الدستورية . وقد ظهر في تطبيقه نقائص لم يكونوا يترقبونها مما أثار في النفوس احساسات ممكوسة ظهرت في الادب بمظهر الخيبة والتشاؤم

واذا عرفنا ذلك عرفنا الدافع الى قول جرجي زيدان بعد زيارته لسوريا ولبنان عام ١٩١٠ مشيراً الى التشاؤم المستحوذ على بعض النفوس . وحذّراً من التمادي في ذلك [1] « وطائفة تمثّلت استبداد الدستور فعبر تريد ان تصير المملكة العثمانية التي نهضت من غيبة حال الاحتضار وقد نضبت ماليتها وأجدبت أرضها وأظلمت مدنها وخربت طرقها وشوارعها وفسد كل شيء فيها حتى اخلاق أهلها . واختلَّ نظام اجتماعها وفرّق التعصب بين طوائفها ومذاهبها — تريد هذه الفئة من المتفدين ان تصير هذه المملكة في سنتين مثل اوربا وهذا مستحيل »

فقد أدرك زيدان يومئذٍ ما كان يشعر بهِ الناس عموماً من سوء الظن بالحكومة الدستورية وخيبة الامل بما أعلنتهُ من الاصلاح ، فلم يجارهم في النقد بل رأى التريث والصبر أولى وأحسن

(١) راجع الهلال ١٩ — ٢٩

للوصول الى الغرض المقصود . وقد شاركه في ذلك كثير من المفكرين . الاّ أن بعض الشعراء لم يستطع الصبر على هذه الحال فاندفعوا في سبيل الهكم والانتقاد ، كقول الرصافي من قصيدته شكوى الى الدستور [١]

قل أيها الدستور تسمع شاكياً بك اليوم يرجوان يرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصوارم طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الافق
فصادفت منّا أمةً قد تشتّت لقاءك حتى جاوزت مبلغ الشق
وظلنا نرجّي منك للخرق راقعاً ولكن تراخي الامر متسع الخرق

وقول الشاعر القروي في البرازيل [٢]

جاءت فكبرنا وشقّ هتافنا قلبَ العنان تيهاً بالجاني
ودعا الفقير لها وسمّاها أخو البؤس الشديد بأعذب الاسماء
حتى اذا فتر التحمّس وانجلى صبح الحقيقة عن دجى الضوضاء
نادى فلم يجد النداء ودعا فما لبّاهُ غير تجاوب الاصداء

ولولي الدين يكن قصيدة موضوعها ( الاسترقاق في أيام الحرية ) صدّر بها أحد فصول كتابه الصحائف السود سنة ١٩١٠ . وفيها يقول عن الحرية

تشتاق في عزّها ذويها وحصنها دونهم حصين
حتامَ هذي القيود تبقى يارب قد كلّت المتون

وقد عبّر عن عواطف كثير من الناس حين قال على طريقته الشعرية النثرية [٣]

« قلت حين نبذوا لنا جيفة الدستور : نؤازر هؤلاء القوم القائمين فينا بالامر ، ربما أصابوا من حيث لا يشعرون . وكم رمية من غير رام . وقلت اطمئني أيتها القلوب واسكني يا ثائرات النفوس . ووقف اخواني الثمانيون يتفرّجون فما راعنا الاّ مذابح وفتن ، وغارات تتلوها غارات ، وصخب وضجيج ، وبنا نواب الامة يتجاذبون أطراف الفوائد كلٌّ يريد أن يسمّن كبشه » ثم يقول « اخواننا الذين يظلهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام وهم معذورون . كمْ شفارٌ أرهفت ، وسيوف سلّت تتخطف الرقاب كما تتخطف الثمار »

ويلخ به التشاؤم سيفه في هذين البيتين [٤] مخاطباً رجال الدولة

أفلا يزال السوط حاكمكم وأبو السباط يلذ ذعرا [٥]

---

(١) ديوانه (١٩٣١) ٣٧٥ (٢) الرشيديات (سان باولو ١٩١٦) ٧١ (٣) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٢٤و٢٥ (٤) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٤٢ (٥) اشارة الى اقتفاء اثر الحيدي

وقول أحرار تصدكم لا حرٌّ فكم كلنا كذبا

على ان أتم مرثية نظمت في هذا الباب قصيدة موضوعها « بين أنقاض الوطن » قالها يصف حال الدولة وما وصلت اليه على يد الدستوريين وهي تليف على الستين بيتاً [1]

سلطة بشرى واثبتها بعضده ... وما يجتبي من كاذب الحلم حالمُ
أقيم بناء الجور فوق شفا ولم تهو آساس له ودعائمُ
فإن ظنّ ... قائماً فهو مائلٌ ومن ظُنّ منهم بانياً فهو هادمُ
وأربعة [2] مرّت ولم تحل لامرئ ... شهادتُ على الاقطار وهي صمائمُ
تعوّض يأساً من غدا وهو آملٌ وشام يقيناً من سرى وهو واهمُ

ومثلها تشاؤماً وسخطاً قصيدة موضوعها « التعصب يخرج الحرية من ديارها » . قالها حين تولى الحكام جيل الزهاوي من بغداد ومطلعها « اسيرٌ بدار الظلم اعياه أسره » وفيها يندد بالجور والتعصب ويلوم أولي الامر على انتهاك حرمة الدستور . وهي تبلغ ثلاثين بيتاً ويتجلى لك روحها في قوله [3] —

أحين هوى عبد الحميد بعرشه وغيره بالغم في الناس غايره
يقوم اناس يستعيدون عهده وفينا يازي قائم وعساكره
ألا لا ترجّي العدل والعدل دونتا مرارده محمية ومصادره
تحلى زماناً ثم لم تبتسم لنا ازالته حتى استمرّت اواخره

فولي الدين يكن الاتحاديين الاستبداد بالامر والتفرد على الحرية مما يجعل الدستور نظاماً أجنبياً خير منهُ . وقد يعلل ان هذا الشاعر عصبي المزاج يميل الى سوء الظن فيبالغ في نقده سيئات الدستوريين . على انهُ لم ينفرد بذلك والذي يراجع ادب ذلك العهد يجده مشبعاً بالياس والمرارة . او على الاقل مصطبغاً بصبغة عدم الرضا كما ترى في مقال ترفيق افندي [4] يشبه الاتحاديين وأعمالهم بالصفة النباية فيقول — « ان الاحزاب في البلاد الدستورية كالقواعد التي يشاد عليها بناء الدستور . ولا يمكن لقاعدة واحدة ان تحمل ذلك البناء . فهل لاحد انا الاتحاديين ان يتسموا في هذا الامر قليلاً ليعلموا ان القوة لا تنبع بحزب واحد يحمل ذلك البناء الثقيل بازاء امة جامدة مثل هذا الجمود المخيف . فهي في حاجة الى من يسوقها الى ميدان السياسة ويرشدها الى فضيلة الحكم

(١) راجعها في التجارب ٨ : ٠٠ (٢) أربعة اعوام مرت على اعلان الدستور (٣) راجعها في التجارب ٨ : ٠٠ والمؤيد ٢ — ٢٩٣

الدولي ألا وهي الاحزاب فانها هي التي تتولى تمرين الشعب على ذلك الحكم وتشوقه اليه لتكون يداً واحدة في المحافظة على الحرية والدستور» وهذا الكلام كلام عارف بأحوال البلاد مطلع على دخائل الامور. فهم ليس فيه لذع ولي الدين ولكن فيه ما يشير الى الاسباب التي ادرت كوامن نفسه احساسا

ومن المتقدمين من رأى الخلل في الشعب نفسه لا في القائمين باصلاحه او المتولين لشؤونه فمن الاجحاف عندهم ان تلقى كل التبعة او معظمها على عاتق الذين احدثوا الانقلاب وتولوا الاحكام. وان يعزى اليهم وحدهم هذا الفشل في تحقيق النظام. وفي ذلك يقول الاستاذ الدكتور فيليب حتي من خطبة له موضوعها من اللوم[1] — «ما لنا قائمة نقامت بناءً على حكومتنا ورجال الحكم فينا ولا لوم على هؤلاء ولا تثريب. انما اللوم كل اللوم علينا نحن كافة من ان الحكام ليسوا الا بعض افرادها يرتقون بارتقائها وينحطون بانحطاطها. يقولون الداء اختلاف العناصر والدواء ائتلافها وامتزاجها — يقولون الداء «المركزية» والدواء توسيع اللامركزية والسلطة الادارية — يقولون ويقولون والواقع غير ما يقولون. الداء الحقيقي هو جهلنا حقائق الامور واحتياطنا علميًا وأدبيًا كأفراد وبالتالي كجمهرة، والدواء التهذيب الحقيقي. وما الضعف القومي سوى عبارة عن مجموع الضعف الافرادي. أنا في حاجة الى تهذيب عام يشمل الفتيان والفتيات — حاجتنا الى مبادىء قويمة في آدابنا العصبية — الى رجال» وتصف لنا الشعر قصيدة المؤلف موضوعها «الفاتحة في الشرق» وقد نظمت على اثر بعض الحوادث المؤسفة عام ١٩٠٩ ومنها[2] —

سلانيك(٣) حي الجند عنا وسلمي عليهم سلام المستهام المتيم
وهبت لنا الدستور منك تكرماً وما نحن اهل للعطا والتكرم
ضجيج وأوهام هو الشرق كله فهل من فحول في الشدائد مقدم
يقولون ان الشعب في الشرق حاكم وربك ما للسلطان منه بأعظم
أغيروا أغيروا الجاهلين فانما في الشرق نسرقي في الظلام المخيم
أغيروا أغيروا الجاهلين وبشروا بدستوركم في دار الشرق يعلم
فما الشعب بالرأي العمومي ناهض الى ذروات المجد من غير سلم

وعما زاد الحالة تفاقماً والنفوس تشاؤماً ما نشأ بعد خمود الثورة الدستورية من المنافسة بين العرب والاتراك. بعد تلك الغبطة المتفائلة التي نراها في الادب ما بين سنتي ١٩٠٨ — ١٩٠٩ والتي كانت تميل الى تعزيز الجامعة العثمانية والتباهي بها أمام الاجانب، أخذ التشاؤم يتسرب الى بعض الاوساط المثقفة من الشبيبة العربية الى المقارنة بين ما كانوا يطمحون بدورهم اليه من السلطة وتلك هي الشرارة الاولى من النار التي تأججت بعد ذلك في الثورة الحجازية ثم في الحركة القومية العربية بعد الحرب الكبرى. وسنفرد لهذه الحركة ولأثرها في الادب العربي فصلاً خاصة ونتقدمها الى كلمة في الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وأثرها [illegible] من يتعهده

(١) القاها في [illegible] ١٩٠٩ ونجدها في [illegible] ص — [illegible] الصافي مجلد ١ جزء [illegible] (٢) [illegible] في المركز العام للشرق [illegible]